AL-AZHAR UNIVERSITY
BULLETIN OF THE FACULTY
OF
LANGUAGES & TRANSLATION

جامعة الأزهر
مجلة كلية اللغات والترجمة

الدور العماني في تحرير الساحل الإفريقي الشرقي من الوجود البرتغالي
كما صوره الشعر السواحيلي

د. وائل نبيل إبراهيم عثمان

أستاذ اللغة السواحيلية وآدابها المساعد
قسم اللغات الإفريقية وآدابها – كلية اللغات والترجمة
جامعة الأزهر

الدور العماني في تحرير الساحل الإفريقي الشرقي من الوجود البرتغالي كما صوره الشعر السواحيلي

وائل نبيل إبراهيم عثمان
قسم اللغات الإفريقية وآدابها، كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر، القاهرة، مصر.
البريد الإلكتروني:dr.wael_nabil@azhar.edu.eg

ملخص:

صوَّر الشعر السواحيلي مدى الازدهار والحضارة التي عاشها أهل الساحل الإفريقي الشرقي قبل مجيء البرتغاليين. ثم جسَّد شدة الدمار والخراب الذي قام به البرتغاليون في مدينة باتي Pate، بعد وصولهم إلى الساحل الإفريقي الشرقي. كما صور فرحة أبناء الشعب السواحيلي واحتفاءهم بقدوم سلاطين عمان إلى الساحل الإفريقي الشرقي وتحريرهم من الوجود البرتغالي ونشر السلام هناك.

الكلمات المفتاحية: العمانيون، الساحل الإفريقي الشرقي، البرتغاليون، الشعر السواحيلي, مدينة باتي.

The Omani Role In Liberating The East African Coast From The Portuguese Presence As Depicted By Swahili Poetry

Wael Nabil Ibrahim Othman
Department of African Languages, Faculty of Languages & Translation, Al-Azhar University, Cairo, Egypt.
Email: dr.wael_nabil@azhar.edu.eg

Abstract:

The Swahili poetry depicted the extent of prosperity and civilization experienced by the people of the east African coast before the advent of the Portuguese. Then it embodied the severity of the destruction and devastation carried out by the Portuguese in the city of Pate, after they reached the east African coast. Swahili poetry also depicted the joy of the Swahili people and their celebration of the arrival of the sultans of Oman to the east African coast, liberating them from the Portuguese presence, and spreading peace there.

Keywords: Omanis**,** The East African Coast, Portuguese, Swahili Poetry, The City Of Pate

مقدمة:

ترجع جذور العلاقات التجارية بين عرب عمان والساحل الإفريقي الشرقي إلى النصف الثاني من القرن الأول الميلادي (ستودارد: ١٩٧٣: ج٣: ٧٣). حيث لعب العمانيون دورا مهماً في التجارة البحرية في المحيط الهندي، فعملوا على نقل التوابل ومواد الطيب من سواحل الهند وشرق إفريقيا، إلى سواحل الجزيرة العربية تمهيداً لنقلها إلى مناطق حوض البحر المتوسط. وقد سجَّل أحد المؤرخين الإغريق أن ساحل إفريقيا كان يزدحم بالسفن العربية القادمة من جنوب شبه الجزيرة العربية، وذلك منذ القرن الأول الميلادي (الريامي: ٢٠٠٩: ٢٢). ومن ثمَّ كان للعرب تأثيرهم الواضح في الساحل الإفريقي الشرقي، ويدل على ذلك أن الإغريق والرومان أطلقوا عليه اسم عزانيا Azania، نسبة إلى إحدى الممالك العربية القديمة وهي مملكة عزان التي يقال إنها وجدت في منطقة ما جنوب الجزيرة العربية في فترة سابقة على ظهور الإسلام، وانتقل سكانها إلى شرق إفريقيا حيث نسب الإغريق والرومان هذا الساحل إليهم فيما بعد (قاسم: ١٩٩٦: ٦٢).

أما بعد ظهور الإسلام فقد ازدادت هذه العلاقات التجارية ازدياداً عظيماً، ولم يقتصر العرب على النشاط التجاري هناك، بل اشتغلوا بالزراعة وعلموا غيرهم، وغرسوا شجر الكوكو وعدداً لا يُحصى من أشجار جزيرة العرب، مثل المانجو والرمان وقصب السكر، وأدخلوا زراعة القطن والسمسم الهندي والبهارات الهندية والأرز، وأتوا بكثير من حيوانات بلدانهم (ستودارد: ١٩٧٣: ج٣: ٧٣).

وعندما علم البرتغاليون بوجود مناجم الذهب في سوفالا Sofala جنوب كيلوا Kilwa، أبحر فاسكو دا جاما Vasco da Gama (المستكشف البرتغالي) في منتصف عام ١٥٠٢م، إلى ميناء كيلوا ومعه ١٩ سفينة حربية، واستولوا عليها وقيدوا حاكمها بالحديد ولم يفكوه إلا بعد أن فرضت عليه إتاوة مقدارها ١٥٠٠ مثقال من الذهب سنويا وأن يعترف بسيادة ملك البرتغال (أبوعجل: ٢٠٠٢: ٥٩). ومن ثم، بدأ البرتغاليون فرض الجبايات على مدن الساحل الإفريقي

الشرقي ونهب ثرواتها والتحكم فيها مما فجَّر غضب أهالي هذه المدن فأذاقهم البرتغاليون ألوان العذاب. فتوجه وفد مؤلف من كافة أطياف المجتمع السواحيلي إلى عمان يطلبون النجدة من الإمام سلطان بن سيف اليعربي لإخراج البرتغاليين من بلادهم. وفي عام ١٦٥٢م، لبى الإمام سلطان بن سيف دعوة السواحليين وأرسل أسطولاً لطرد البرتغاليين وهاجمهم في زنجبار وباتي فهزمهم شر هزيمة (أبوعجل: ١٩٩٦: ١٥٦– ١٦١).

ويُعد الشعر السواحيلي مصدراً غنياً في تصوير الوقائع التاريخية وتسجيلها تسجيلاً موثقاً، لذا نجد أن الشعراء السواحيليين قد صوَّروا مدى الازدهار الذي عمَّ أرجاء مدن الساحل الإفريقي الشرقي قبل وصول البرتغاليين إليه، ثم صوَّروا مدى شدة الدمار والخراب الذي خلَّفه البرتغاليون وخاصة في مدينة باتي Pate، ولامو Lamu، وممباسة Mombasa تصويراً شعرياً دقيقاً. وصوَّروا كذلك مشاعر البغض والكراهية والعداء التي ملأت قلوب السواحيليين تجاه البرتغاليين. فضلاً عن تصويرهم لمشاعر الفرحة التي غمرت أهل الساحل واحتفائهم بقدوم سلاطين عمان إليهم وبتحريرهم من الوجود البرتغالي.

ومن ثمَّ، فقد ألقت هذه الدراسة الضوء على نماذج من الشعر السواحيلي التي صوَّرت حال الساحل الإفريقي الشرقي قبل وصول البرتغاليين وبعده، موضحة الدور العماني في تحرير الساحل الإفريقي الشرقي من الوجود البرتغالي ونشر السلام هناك، بهدف الكشف عن مدى دقة تصوير الشعر للحقائق التاريخية من ناحية، والكشف عن القيم الفنية والجمالية التي عبَّر من خلالها ذلك الشعر عن تلك الحقائق من ناحية أخرى. وذلك من خلال الاعتماد على المنهج الجمالي؛ الذي من شأنه استخلاص الملامح الفنية والجمالية من النص الشعري، والمنهج التاريخي الذي من شأنه استجلاء ما يتضمنه النص من حقائق تاريخية.

أولاً – الساحل الإفريقي الشرقي قبل وصول البرتغاليين:

في السنوات الأولى من القرن الثامن الهجري الموافق للربع الأول من القرن الرابع عشر الميلادي، أي قبل وصول البرتغاليين بحوالي قرنين من الزمان، وفد الرحالة ابن بطوطة على

الساحل الإفريقي الشرقي وتحدث عن مدى الازدهار الذي بلغه ذلك الساحل آنذاك، مشيراً إلى غلبة الطابع العربي عليه ويظهر ذلك بوضوح من خلال انتشار المنازل المبنية بالحجارة بدلاً من المنازل البدائية. ولم يكن ابن بطوطه وحده هو الذي نقل هذه الصورة المشرقة عن الساحل الإفريقي الشرقي آنذاك، بل إن هناك الكثير من المصنفين الذين أكدوا على ما ذكره هذا الرحالة، وكذلك نجد اعتراف البرتغاليين أنفسهم بما وجدوه من حضارة زاهرة. ومن أهم من أشاد بهذه الحضارة وتحدث عنها الملاح البرتغالي فاسكو دي جاما والرحالة باربوسا Barbosa، اللذان سجلا ما وجده البرتغاليون على الساحل الإفريقي الشرقي من مدن ومجتمعات متحضرة وتجارة مزدهرة مع الهند والشرق الأقصى (قاسم: ٢٠٠٠: ٣٣-٣٥).

ويؤكد المغيري على ذلك قائلاً: عندما وصل البرتغاليون إلى الساحل الإفريقي الشرقي أدهشهم ما وجدوه فيه من منازل ومساجد وقبور مبنية بالحجر بإحكام وهندسة، مما يدل على أن مؤسسيها كانوا من أصحاب الذوق السليم (المغيري: ١٩٨٦: ٨٣). وقد وجد البرتغاليون في جزيرة باتي Pate حكام آل نبهان، وفي ممباسة Mombasa حكاماً من أهلها، والمناذرة من العرب العمانيين، وفي جزيرة واسيني Wasini الأشراف من بني علوي، وفي زنجبار Zanzibar أجداد بني بكر العلوي (المغيري: ١٩٨٦: ١٧٤). وهذا يؤكد على وجود العرب العمانيين وانتشارهم في سواحل شرق إفريقيا قبل وصول البرتغاليين إليها، وأن العرب هم الذين أسسوا هذه الحضارة آنذاك. وليس أدل على ذلك من وجود كلمة Ustaarabu الحضارة، في المعجم السواحيلي وهي مشتقة من الفعل Staarabika أي تحضَّر، واسم الفاعل منها Mstaarabu متحضر، وكل هذه الكلمات اقترضتها اللغة لسواحيلية من اللغة العربية (Johnson: 1939: 436). وهذا دليل قاطع على أن العرب هم أصل الحضارة ومهدها على الساحل الإفريقي الشرقي قبل وصول البرتغاليين. وقد صوَّر الشعر السواحيلي جانباً من هذه الحضارة والرقي من خلال أبيات قصيدة الانكشاف التي تنتمي لنمط كيسارامبى Kisarambe، حيث تكوَّن البيت فيها من أربعة أسطر، وكل سطر به أحد عشر مقطعاً. تنفرد الثلاثة أسطر الأولى بقافية موحدة

على مستوى كل بيت، وينفرد السطر الرابع بقافية موحدة على مستوى القصيدة (ye). وقد وصف الشاعر في البيت التالي حال أهل هذا الساحل بقوله:

Uwene wangapi watu wakwasi,
walo wakiwaa kama shamsi,
Wamuluku zana za adharusi,
dhahabu na fedha wakhiziniye.
(Stigand: 1915:75)

كم رأيتَ من أناس أثرياء
الذين كانوا مثل الشمس
يملكون أدوات القتال
ويكنزون الذهب والفضة

صوَّر الشاعر السواحيلي عبد الله بن ناصر في هذا البيت المستوى الاقتصادي المرتفع الذي تمتع به أهل جزيرة باتي آنذاك، حيث كانوا تجاراً أثرياء عندهم المال الوفير والذهب والفضة، ولديهم القدرة على الدفاع عن أنفسهم وأموالهم ضد أي معتد باستخدام أدوات القتال التي كانوا يملكونها. والشاعر يتعجب من كثرة عدد الأثرياء في هذه المنطقة معبراً عن هذا التعجب من خلال كلمة wangapi كم، ومشبهاً إياهم بالشمس التي لا تخطيئها عين. أما عن منازلهم فقد قال الشاعر:

Nyumba zao mbake zikinawiri,
kwa taa za kowa na za sufuri;
Masiku yakele kama nahari,
haiba na jaha iwazingiye.

بيوتهم مصابيح إذا أنارت
بمصابيح بلورية ونحاسية
فيصبح الليل كالنهار
تحيطهم الهيبة والجاه

Wapambiye Sini ya kuteuwa
Na kula kikombe kunakishiwa
Kati watiziye kuzi za kowa
Katika mapambe yanawiriye
(Stigand: 1915:76)

وزينوها بالخزف الصيني المنتقى
وكان كل فنجان منقوشاً
وفي الوسط إبريق من البلور
في زينة متلألئة

وصف الشاعر السواحيلي مدى الترف الذي عاش فيه أهل جزيرة باتى بأنهم كانوا يضيئون بيوتهم بمصابيح بلورية ونحاسية، وقد شبه الليل بالنهار تعبيراً عن شدة إضاءة هذه

المصابيح، مما يشير إلى مدى التقدم والرقي الذي كانوا يعيشون فيه آنذاك. حيث أكد ماتفييف على ذلك بقوله: إن اكتشاف مسارج (أو قناديل) آنذاك يفترض وجود درجة عالية من الحضارة. وعلى ما يبدو، فإن هذه المسارج كانت تستخدم في إضاءة الأجزاء المظلمة من المنازل (ماتفييف: ١٩٨٨: ٤٧٢). وليس ذلك فحسب، بل كانوا يزينون منازلهم بالخزف الفاخر المستورد من الصين. ثم أوضح الشاعر الأماكن التي توضع فيها هذه الزينة على وجه التحديد فقال في بيت آخر من نفس القصيدة:

طاقات جدران المنزل (المزينة) بالأطباق الصينية Madaka ya nyumba ya zisahani (Stigand: 1915:76)

بيَّن الشاعر في السطر الشعري السابق أن أماكن الزينة في منازل أهل جزيرة باتي آنذاك تسمى Madaka، وهي طاقات كبيرة مجوفة في جدران المنازل يوضع بداخلها الأطباق الصينية كما هو واضح في الصورة رقم (١).

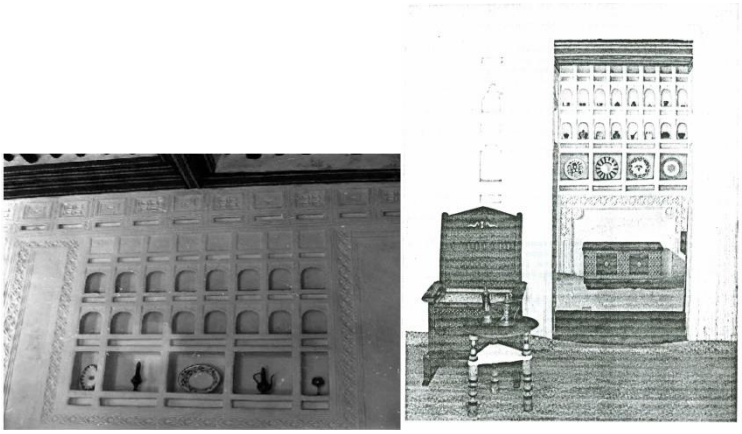

صورة رقم (١)

الأواني المصنوعة من الخزف الصيني المزين بها جدران المنازل

وجدير بالذكر أن الخزف الصيني كان من أهم السلع التي كانت تصل إلى ساحل شرق إفريقيا، حيث كان أهل الساحل يزينون به جدران منازلهم، ويتغنون به في أشعارهم السواحيلية وذلك لجودته العالية وأشكاله الرائعة. ويؤكد إيفان هربك على هذا قائلاً: لقد عُثر

على كميات ضخمة من أواني الخزف الصيني في المدن الساحلية بشرق إفريقيا، وهذا يعني أن هذه الأواني كانت تشكل حتماً جزءاً مهما من الصادرات الصينية إلى إفريقيا (هربك؛ ١٩٩٧: ٤٤). وهذا كله يوضح مدى الرفاهية والحضارة التي تمتع بها أهل الساحل الإفريقي الشرقي قبل مجيء البرتغاليين.

ثانياً – الساحل الإفريقي الشرقي بعد وصول البرتغاليين:

ومنذ أن وصل البرتغاليون إلى الساحل الشرقي الإفريقي وهم في حرب مستمرة مع أهل هذه السواحل وقد أكد على ذلك كولين ريد Colin Reed، قائلاً:

Wareno hawakuja kwa amani. Tangu mwanzo walianza kupigania vita na wenyeji wa miji hii ya pwani (Reed: 2007: 27)

لم يأت البرتغاليون بالسلام. فبمجرد وصولهم بدأوا في محاربة أهل هذه المدن الساحلية. ومعلوم تاريخياً أن من ضمن المدن التي حاولوا الاستيلاء عليها مملكة باتي عام ١٠٤١هـ، وبعد وقوع حرب ضارية بينهم وبين أهل باتي صار البرتغاليون يظلمون ويهتكون أعراض النساء، واستبدوا بالأوامر في باتي بعد ما فتحوها (المغيري: ١٩٨٦: ١٩٠). وقد صوَّر الشاعر السواحيلي السيد/ عبد الله بن ناصر مدى شدة الدمار الذي خلَّفه البرتغاليون في جزيرة باتي تصويراً شعرياً دقيقاً ومعبِّراً، وذلك في الأبيات التالية من قصيدة الانكشاف:

49 Nyumba zao mbake ziwele tame Makinda ya popo iyu wengeme Husikii hisi wala ukeme Zitanda matandu walitandiye.	أصبحت منازلهم المنيرة حطاماً يحلق حولها صغار الخفافيش فلا تسمع صوتاً خفياً ولا ظاهراً وعلى الأسرَّة نسجت العناكيب خيوطها
50 Madaka ya nyumba ya zisahani Sasa walaliye wana wa nyuni Bumu hukoroma kati nyumbani Zisiji na koti waikaliye.	طاقات جدران المنزل (المزينة) بالأطباق الصينية الآن تنام فيها فراخ الدجاج المائي والبوم يصيح في وسط هذه المنازل وتعيش فيها أنواع الطيور المختلفة

51 Wana wa zipungu wapende zango
Na wana wa ndiwa humia shingo
Na kupija mbawa mitungo tungo
Zikwi na zitati waliwashiye.

52 Nyumba kati zao huvuma mende
Kumbi za msana zalia ng'ende
Yalingie vumbi makumbi yande
Kuwa mazibala yalisiriye.

53 Ziwanda za nyumba ziwele mwitu;
Ungi wa matuka na matukutu
Milango ya ndia yatisha mtu
Kwa kete na kiza kilifundiye.

54 Kwamba usadiki hwamba ‘Mbuwongo’
Enda nyumba zao uzinde shingo
Ukita hwitikwi ila ni mwango
Sauti ya waja itindishiye.
(Stigand: 1915:77)

وفرخ النسور صارت تحط هناك
وصغار اليمام يثني رقبته
ويرفرف بأجنحته كثيراً كثيراً
وعشش الحمام وصغار الطيور هناك
وفي وسط منازلهم تخشخش الصراصير
وفي مخيمات الختان تصيح الضفادع
ويخيم السكون على الصالات الخارجية
فصارت هي والمزابل سيان
وأصبحت أفنية المنازل غابة
بحشائشها الكثيفة ونباتاتها المتسلقة
والأبواب الخارجية ترعب الإنسان
بما يخيم عليها من سكون وظلام
وإذا كنت لا تصدق وتقول إنه كذب
فاذهب إلى منازلهم وأدر رقبتك
فإذا ناديت فلا مجيب إلا الصدى
إذ إن صوت البشر قد تلاشى وانتهى

والقارئ لهذه الأبيات يجدها مليئة بالكنايات والصور المجازية التي توضح حجم الدمار الذي ألحقه البرتغاليون بأهل مدينة باتي. ومن هذه الصور المجازية، تصوير الشاعر لمنازل أهل هذه المدينة التي أصبحت مجرد أطلال بعد أن كانت قصوراً زاهية، وأضحت مسكناً للخفافيش والعناكيب والبوم والنسور، وأمست أعشاشاً لليمام والحمام، وسارت جحوراً للصراصير والضفادع ومقالب للنفايات، وباتت كالغابة التي تتسلقها النباتات، وكالأوكار المخيفة التي يخيم عليها السكون والظلام بعد أن كانت قصوراً مزينة بالخزف الصيني. والشاعر يدعو القارئ أن

يذهب بنفسه إلى جزيرة باتي ليرى صدق ما يقول وحقيقته، ويحكم بنفسه على ما يرى أمام عينيه (أبوعجل: ٢٠٠٢: ٣٠٧).

وعندما اتجه البرتغاليون إلى جزيرة لامو للاستيلاء عليها استسلم حاكمها وشيوخها رغماً عنهم وفُرِض عليهم إتاوة مقدارها ٦٠٠ مثقال من الذهب سنوياً على أن يتم الدفع الأول في التو واللحظة. وأن تقوم لامو بتزويد الأسطول البرتغالي بالمؤن وخاصة الطعام. وقد كان لهم ما اشترطوا (أبوعجل: ١٩٩٦:151). ومن ثمَّ عبَّر أحد شعراء لامو عن استيائه مما ارتكبه البرتغاليون من تخريب وتدمير قائلاً:

Kwa manuwari nijiye, njema dha Por'tugesi	أتيتُ إلى سفن البرتغاليين العملاقة
Nivavudhe hatiaye, ya kuharibu unasi	لأسألهم بأي ذنب تدمرون الناس
Ajabu nda midhingaye, yavalika kama bisi	عجباً لمدافعها إنها تصدر أصواتاً قوية كالذرة المقلية (الفشار)
Eo dhombo hadhibisi, ntimbi u baharini	فالسفن لا تسافر اليوم، لوجود شخص محب للنزاع في المحيط

كُتبت هذه الأسطر الشعرية السابقة في فترة الاستعمار البرتغالي بلهجة Kitikuu، وهي إحدى لهجات اللغة السواحيلية، ويُتحدث بها في شمال جزيرة لامو (Chiraghdin & Mnyampala: 1978: 49). وينتمي هذا البيت لنمط الأغنية Wimbo، حيث تكون من أربعة أسطر وكل سطر اشتمل على شطرين، في كل شطر ثمانية مقاطع. وقد التزم الشاعر بقافية الوسط (ye) والعجز (si) في الأسطر الثلاثة الأولى، أما السطر الرابع فقد التزم بقافية الوسط (si) والعجز (ni). والشاعر في هذه الأسطر يوجه سؤالاً استنكارياً للمستعمر البرتغالي قائلاً له: لماذا تدمرون أبناء الساحل الإفريقي الشرقي؟ وما الذنب الذي ارتكبوه لكي تستبيحوا دماءهم وأعراضهم بهذه الطريقة؟. ثم يتعجب الشاعر من أصوات القذائف المتلاحقة التي تطلقها مدافعهم مصوبين إياها على صدور السواحيليين ومنازلهم، مشبِّهاً ذلك بصوت الذرة المقلية الذي

لا يتوقف. وفي ذلك إشارة واضحة لحجم الدمار والتخريب المستمر والهائل الذي حل بالساحل الإفريقي الشرقي. كما ذكر الشاعر أن حركة الملاحة للسفن تكاد تكون متوقفة تماماً بسبب هذا الدمار الذي قضى على الأخضر واليابس، ولأن المستعمر البرتغالي الذي تسبب في ذلك لا تزال سفنه موجودة على الساحل.

وأما جزيرة ممباسة، فقد استولى البرتغاليون عليها وشددوا الخناق على أهلها، ولذلك عُرِفت هذه الجزيرة آنذاك باسم Mvita، المأخوذ من كلمة Vita الحرب، إشارة إلى كثرة الحروب التي خاضها أهل هذه الجزيرة آنذاك (Chiraghdin & Mnyampala: 1978: 40). وكان للبرتغاليين حصن منيع في ممباسة يُعرف بحصن يسوع، فكانوا يحتمون به وينفذون سياستهم الجديدة القائمة على استغلال قوتهم والوضع الاقتصادي المتردي للمواطنين لتنصير الناس، وقرروا الإعفاء من الضرائب لمدة ١٥ عام لمن يتنصر، هذا بالإضافة إلى منحه هدايا عينية. وحاربوا الثقافة الإسلامية في المنطقة وبنوا الكنائس لأول مرة على الساحل (أبوعجل: ١٩٩٦: ١٥٧). مما أجج مشاعر الغضب والكراهية والعداء في نفوس أبناء المجتمع السواحيلي فعبَّر شعراؤهم عن ذلك شعراً منظوماً.

ثالثاً – مشاعر أهل الساحل الإفريقي الشرقي تجاه البرتغاليين:

امتلأت صدور أهل الساحل الإفريقي الشرقي وقلوبهم كراهية وبغضاً وعداء للبرتغاليين بسبب ظلمهم واعتدائهم الوحشي على أبناء المجتمع السواحيلي بغير وجه حق. وقد عبَّرت الشاعرة السواحيلية السيدة بنت خميس موينى مفيتا Mwana Hamisi Mwinyi Mvita، عن ذلك في البيت التالي قائلة:

Mzungu Migeli u mwongo,
Mato yako yana tongo,
Kwani kuata mpango,
Kwenda kibanga uani
(Hichens: 1979: 88)

أيها الأوروبي ميجويل إنك كذاب
وإن عينيك بها عور
لماذا تركت الجنود
يذهبون إلى الكوخ في الفناء

يُلاحظ أن هذا البيت ينتمي لنمط الأغنية، حيث تكوَّن من سطرين، وكل سطر به شطران، وكل شطر احتوى على ثمانية مقاطع، وانفردت الثلاثة أشطر الأولى بقافية موحدة على مستوى البيت (go)، أما الشطر الرابع فقد انفرد بالقافية (ni). وقد استخدمت الشاعرة في صدر الشطر الأول من البيت السابق اسم Migeli/Miguel ميجويل، كرمز للبرتغاليين واصفة إياهم بصفات مشينة تكشف عن حجم الكراهية التي تغلغلت في نفسها وفي نفوس أبناء مجتمعها تجاههم. وأولى هذه الصفات ممثلة فيما تشير إليه كلمة Mzungu، التي تعني شخصاً أوروبي الأصل. وفي هذا السياق قد تحمل هذه الكلمة معنى السخرية والاستهزاء. ووردت الصفة الثانية في عجز الشطر الأول من البيت السابق في قول الشاعرة: u mwongo أنت كذاب أو مخادع. كما وصفتهم في الشطر الثاني بالعَوَر قائلة: Mato yako yana tongo، في عينيك عور. إشارة إلى أن ميجويل هذا قرصان يرتدي على إحدى عينيه ضمادة. أي أنها أرادت أن توضح حقيقة البرتغاليين وأنهم ليسوا إلا مجموعة من القراصنة اللصوص الذين جاءوا بحرا لنهب ثروات الساحل الشرقي الإفريقي. ثم أكدت على الوصف الأول (أنهم كاذبون أو مخادعون) في الشطر الثالث والرابع، حيث قالت ما معناه أنهم غير ملتزمين بما يقولون. وطبقاً لما قاله تيلور Taylor إن هذه الأسطر الشعرية القديمة يرجع تاريخها إلى وقت جلاء البرتغاليين عن حصن يسوع في ممباسة، بعد قيامهم بهتك أعراض الممبسيات وإهانتهن، مما تسبب في حرب ضارية بينهم، وكان ميجويل هذا قسيساً برتغالياً يعيش في ممباسة آنذاك (Taylor: 1891: 95,96). فمن خلال هذا البيت أرادت الشاعرة أن تعرب عما يجول في صدرها وفي صدور أهل ممباسة من كراهية وعداء لهذا المستعمر الغاشم.

وقد أكد شاعر سواحيلي آخر على هذه الكراهية التي تكنها الصدور قائلاً:

Enda Manoeli	ututukizie	ارحل يا منويل إنك جعلتنا نكرهك
Enda na sulubu	uyitutiziye	ارحل والصليب احمله معك

(Knappert: 1979: 18)

تجدر الإشارة إلى أن هذا البيت ينتمي إلى نمط الأغنية، حيث تكون من سطرين، واحتوى كل سطر على شطرين، وكل شطر به ستة مقاطع، والتزمت الشاعرة بقافية العجز (e). وتظهر من خلال كلمات هذا البيت مشاعر المجتمع السواحيلي المتأججة بالكراهية والعداء للبرتغاليين. ويدعِّم هذا المعنى يقويه ما صرَّح به الشاعر في عجز السطر الأول بشكل واضح ومباشر حيث قال: ututukizie جعلتنا نكرهك. هذا بالإضافة إلى تكرار فعل الأمر المباشر للمخاطب المفرد Enda اذهب، وذلك في بداية السطر الأول والثاني من البيت السابق. واستخدم الشاعر في منتصف السطر الأول اسم منويل، كرمز إلى البرتغاليين، وذلك في الغالب نسبة إلى ملك البرتغال منويل الذي اعتلى العرش في البرتغال عام ١٤٩٥م، وكان أول من يرسل بالأسطول البرتغالي إلى المنطقة السواحيلية (أبوعجل: ١٩٩٦: ١٦٩). وقد جاء على لسانه أن الغرض من إرسال الأسطول البرتغالي إلى سواحل شرق إفريقيا هو نشر الديانة المسيحية والاستيلاء على الثروات (المليباري: ١٩٨٥: ٢٤٦). ومن ثمَّ، أدرك السواحيليون ذلك فكان الإسلام راسخاً في قلوبهم رسوخ الجبال الرواسي، لذلك يقول الشاعر السواحيلي في السطر الثاني من البيت السابق: Enda na sulubu, uyitutiziye، ارحل والصليب، احمله معك. أي أن وجودك في بلدنا غير مرغوب فيه، فارحل غير مأسوف عليك، ولا ترحل بمفردك، بل ارحل وخذ صليبك معك . وكلمة sulubu الصليب، استخدمها الشاعر إشارة إلى الديانة المسيحية التي أراد البرتغاليون نشرها في سواحل شرق إفريقيا لأنه رمز لها.

رابعاً – مشاعر أهل الساحل الإفريقي الشرقي تجاه العمانيين:

وعلى الرغم من أن البرتغاليين تمكنوا من تشديد قبضتهم على الساحل الإفريقي الشرقي، إلا أنهم لم يتمكنوا من أن يحتفظوا بهذه السيطرة طويلاً، إذ تمكن الإمام ناصر بن مرشد بن سلطان اليعربي سلطان عمان وخلفاؤه من القضاء على النفوذ البرتغالي في الخليج العربي وشرقي إفريقيا (قاسم: ٢٠٠٠: ٤٠). حيث توجه وفد يمثل جميع قبائل الساحل إلى عمان طالبين النجدة من إمام مسقط وعمان سلطان بن سيف اليعربي لإخراج البرتغاليين من بلادهم. وفي عام ١٦٥٢م، لبى الإمام دعوة السواحليين وأرسل أسطولاً لطرد البرتغاليين وهاجمهم في

زنجبار وباتي فهزمهم شر هزيمة (أبوعجل: ١٩٩٦: ١٦١). ومن ثمَّ، سجل الشعر السواحيلي في حينه مشاعر الفرحة التي غمرت أهل الساحل بتحريرهم من النفوذ البرتغالي قائلاً:

Huweza kucheza Katikati baharini	يمكنهم اللعب وسط البحار
Hawakuweza Karibu na Kilindini	ولكن لا يمكنهم الاقتراب من كليندیني

ينتمي هذا البيت إلى نمط الأغنية، حيث اشتمل السطر الأول على أربعة عشر مقطعاً، والسطر الثاني على ثلاثة عشر مقطعاً، والتزم الشاعر بقافية الوسط (za) وقافية العجز (ni). ومن الملاحظ أنه بعدما حرر العمانيون أهل الساحل الإفريقي الشرقي من براثن البرتغاليين تماما علت هتافاتهم مدوية بهذا البيت الشعري السابق تعبيراً عن فرحتهم الشديدة وسعادتهم الغامرة بهذا النصر المبين الذي رزقهم الله به على أيدي العمانيين. لذلك يقول الشاعر بنبرة يعلوها الفخر والاعتزاز والسخرية والاستهزاء من المستعمر البرتغالي إنه من الآن فصاعداً يمكنه اللعب وسط المحيط والعودة إلى بلده، ولكنه لا يمكنه مجرد الاقتراب من ميناء كليندیني بممباسة.

ومنذ ذلك الحين زادت العلاقات بين أهل الساحل الإفريقي الشرقي والعمانيين قوة وصلابة، فكان السواحيليون يفرحون بزيارة سلاطين عمان لهم، ويحتفون بهم ويستقبلونهم استقبالاً حافلاً بالأغاني الشعرية. وإذا غادروا يودعونهم ويدعون لهم ويريدون لهم العودة دائماً وأبداً. وقد ذكر المغيري أن السلطان حمود بن محمد بن سعيد (انظر الصورة رقم ٢) جاء إلى جزيرة زنجبار في أيام دولة عمه برغش بن سعيد، فقوبل بالاحتفاء والتبجيل، ثم سافر إلى لامو وممباسة والجزيرة الخضراء (بمبا Pemba)، فقدمت له الخطب والأغاني، وزُينت المدن، واحتشد الناس لملاقاة عظمته (المغيري: ١٩٨٦: ٤٠١-٤٠٢).

صورة رقم (٢)

السلطان حمود بن محمد بن سعيد البوسعيدي (1896 – 1902م)

ومن هذه الأغاني ما نظمه الشاعر السواحيلي محمد كيجوما Muhamadi Kijuma، وتغنى به أهل جزيرة لامو لاستقبال السلطان حمود آنذاك قائلين:

لقد جئناك	Tumetoka tutokako
بفرح عظيم	Anasa upeo
لنرحب بك	Kukurubia ulipo
وتعترينا حالة من الارتباك	Kwa letu pumbao
يا سيدي: إن هذه مجرد مقدمة	Bwana huno ni mwaliko
والمدح سيأتي.	Maringo yayao
	(Abou Egl: 1983: 60)

يظهر من خلال هذه الأغنية مدى الحفاوة والترحاب والتبجيل الذي حظى به السلطان حمود من أهل لامو عندما استقبلوه، حيث أكدوا على فرحتهم العارمة وسعادتهم الغامرة وترحيبهم الكبير بقدوم هذا السلطان، الذي قيل عنه إنه أول السلاطين البوسعيديين، من أولاد الإمام الذين زاروا الجزيرة الخضراء (المغيري: ١٩٨٦: ٤٠٣). وقد صوَّر الشاعر محمد كيجوما مدى فرحة أهل لامو بهذه الزيارة الكريمة قائلاً: Kwa letu pumbao تعترينا حالة من الارتباك، إشارة إلى أن حالة الارتباك هذه ناتجة عن شدة فرحتهم بقدوم السلطان. ومن الأغاني التي نظمها الشاعر محمد كيجوما أيضاً لهذه المناسبة قوله:

يا الله يا واحد سبحانك	Ya Wahidu Subhana
يا سيدنا يا صاحب السؤدد	Ya Suudu Sayyidana
أيها السيد حمود مولانا	Sayyidi Hamudu maulana
جئنا إليك أيها السيد	Tumekuya kwako Bwana
لنحييك فنحن جميعا رعاياك	Kuamkia sute watumwa
أيها السيد حمود مولانا	Sayyidi Hamudu maulana
	(Abou Egl: 1983: 61)

تنتمي الأبيات السابقة إلى نمط الأغنية، حيث تألف كل بيت من ثلاثة أسطر، واحتوى كل سطر على ثمانية مقاطع. ومن الملاحظ أن هذه الأبيات السابقة قد عبَّرت عن مشاعر أهل لامو الفياضة وأحاسيسهم الجياشة التي غمرتها الفرحة والتبجيل والاحترام لعظمة السلطان. وقد سجل الشعر السواحيلي كذلك توديع أهل لامو للسلطان حمود عند مغادرته وذلك على النحو التالي:

إنه المحتفى به	M Bwa pumbao
هو سيدنا	Wetu Sayyidi
وأولئك أيضا	Pia hao
هذا الذي فاقهم	Huyu mezidi
إنه ذاهب حيث يقيم	Enda kwao
وإن شاء الله سيعود	Nshalla tarudi

(Abou Egl: 1983: 62)

ثم يكرر مجموعة من المنشدين قولهم:

سيعود إن شاء الله سيعود	Atarudi - Nshalla tarudi
سيعود إن شاء الله سيعود	Atarudi - Nshalla tarudi

(Abou Egl: 1983: 62)

إن أهل لامو قد استقبلوا السلطان بكل حفاوة وكذلك ودعوه بكل حب وشوق إلى عودته إليهم سلاماً غانماً دائما وأبداً، داعين الله له بقولهم:

رب يجعل	Rabi takujaalia
دولتك معظمة	Dola yako itukuke
رب يقدر لك	Rabi takujaalia
كل خير ويقرّبك منه	Kulla kheri akwegeshe
وببركات نبينا	Kwa baraka za Nabia
ربنا يحفظك	Mola wetu akuweke

(Abou Egl: 1983: 63)

وعقب الانتهاء من هذا الدعاء يأمِّن أهل لامو بقولهم آمين آمين. فمن خلال هذا الدعاء الذي توسل به أهل لامو إلى الله تعالى للسلطان حمود يظهر مدى حبهم له وتعظيمهم إياه. وفي الوقت نفسه نجد أن أهل زنجبار ينتظرون عودة السلطان بفارغ الصبر ويعبِّرون عن شغفهم هذا بقولهم:

أهل زنجبار	Waunguja
لا يغمض لهم جفن	Kope huwapija
ولا ينامون	Hawalali
إنهم ينتظرون السيد	Bwana humngoja
يا جليل	Ya Jalali
سنقلده عقداً من الزهور	Tamwawika koja

(Abou Egl: 1983: 62)

تنتمي الأبيات السابقة إلى نمط الأغنية، حيث تكوَّن البيت من ثلاثة أسطر، وتراوح عدد المقاطع في كل سطر من أربعة إلى ثمانية. ومن الملاحظ أن الأغنية السابقة تُظهر مدى حب أهل زنجبار لسلطانهم السيد حمود، حيث عبَّروا عن حبهم له في البيت السابق موضحين أنهم لا ينامون ولا يغمض لهم جفن حال غيابه عنهم، وهذا التعبير كناية عن مدى اشتياقهم إلى عودته حتى يستقبلونه بالزهور والورود.

وكذلك سجل الشعر السواحيلي حب أهل الساحل الإفريقي الشرقي للسلطان خليفة (الثاني) بن حارب بن ثويني بن سعيد بن سلطان بن الإمام (انظر الصورة رقم ٣). الذي كان أطول سلاطين زنجبار حكماً، وشابه في ذلك جده السيد سعيد بن سلطان، حيث قضى في الحكم قرابة خمسين عاماً، وعلى وجه التحديد من عام ١٩١١م، حتى وفاته عام ١٩٦٠م. وليس من شك أن حكمه الطويل قد أكسبه خبرة كبيرة وتفهماً للأمور، فضلاً عما تميز به من شخصية قوية ومحبة الرعية له (قاسم: ٢٠٠٠: ٣٥٦). وتُعتبر أيام حكمه العصر الذهبي لزنجبار (المغيري: ١٩٦٨: ١٩).

ومن ثمَّ، فقد سجل الشعر السواحيلي احتفال أهل الساحل الإفريقي الشرقي واحتفائهم بمرور ثمانية وأربعين عاماً في حكم السلطان خليفة بن حارب، حيث نظم الشاعر السواحيلي السيد حاج صالح حاج Hija Saleh Hija، من جزيرة أونجوجا تسعة أبيات شعرية معبَّراً فيها عن حبه وحب أهل جزيرة أونجوجا لهذا السلطان واحتفالهم بهذه المناسبة الطيبة. من هذه الأبيات ما يلي :

Mtukufu mahabubu shani,	mzuri wa kila	المعظم المحبوب رفيع الشأن
Kumsifu ni wajibu visiwani,	raia wa	مدحه واجب على أهل الجزيرتين
Amewashinda mababu zamani.	waliotawala	فاق آباءه الذين حكموا قديماً
Siku aliyotawala jamani,	ni kama leo	وفي مثل هذا اليوم كان قد تولى الحكم
Furaha kila pahala duniani,	zilikuwa	الفرح في كل مكان في الدنيا
Hapakuwa na suala	alipokaa kitini.	فلم يكن هناك مشكلة منذ أن جلس على العرش
Disemba tarehe tisa ileveni,	naintini	في التاسع من ديسمبر عام ١٩١١
Ndiyo siku yako hasa usukani,	aloshika	كان يومه الذي تولى فيه الحكم
Kwa hivyo inatupasa tuitukuzeni.	siku	لذلك يجب علينا أن نمجد هذا ليوم

(Hija: 1959: 382)

صورة رقم (٣)

السلطان خليفة بن حارب بن ثويني (١٩١١- ١٩٦٠م)

تنتمي الأبيات السابقة إلى نمط الأغنية، حيث تكون البيت فيها من ثلاثة أسطر، وكل سطر احتوى على شطرين، في كل شطر ثمانية مقاطع. وقد أرَّخت هذه الأبيات لليوم الذي تسلم فيه السلطان خليفة بن حارب العرش وهو يوم السابع عشر من ذي الحجة لعام ١٣٢٩هـ، الموافق التاسع من ديسمبر لعام ١٩١١م، وكان خلفاً للسلطان السيد علي بن حمود. وقد نُظمت هذه الأبيات ونُشرت في جريدة المعرفة الزنجبارية الأسبوعية بتاريخ ٩ ديسمبر من عام ١٩٥٩م، من أجل الاحتفال بمرور ثمانية وأربعين عاماً على وصول هذا السلطان المعظم لسددة الحكم، مما يوضح مدى حب أهل جزيرة أونجوجا لهذا السلطان وتقديرهم لدوره في حكم زنجبار خلال هذه الفترة. وهكذا فقد سجل الشعر السواحيلي مشاعر الحب والفرح والاحترام التي غمرت قلوب أهل الساحل تجاه سلاطين عمان تعبيراً عن امتنانهم لهم وتقديراً لدورهم الكبير في تحريرهم وإنقاذهم من المستعمر البرتغالي.

خاتمة:

تناولت هذه الدراسة تصوير الدور العماني في تحرير الساحل الإفريقي الشرقي من الوجود البرتغالي تصويراً شعرياً دقيقاً من خلال إلقاء الضوء على نماذج من أبيات الشعر السواحيلي، مقسماً إياها إلى أربعة محاور؛ المحور الأول عبارة عن أبيات شعرية توضح مستوى الحضارة والرقي الذي عاش فيه أهل الساحل قبل وصول البرتغاليين إليهم. والمحور الثاني عبارة عن أبيات شعرية تبيِّن كيف تمكن البرتغاليون منذ وصولهم إلى الساحل الإفريقي الشرقي من تقويض أركان صرح هذه الحضارة. والمحور الثالث عبارة عن أبيات شعرية تُظهر مشاعر البغض والكراهية والعداء التي ملأت صدور أهل الساحل تجاه المستعمر البرتغالي. أما المحور الرابع والأخير فقد أوردت الدراسة فيه أبيات شعرية توضِّح مشاعر الحب والود والتقدير والاحترام التي غمرت قلوب أهل الساحل نحو العمانيين تقديراً لدورهم في تحريرهم من النفوذ البرتغالي. وقد خرجت هذه الدراسة بالنتائج التالية:

١- عاش أهل الساحل الإفريقي الشرقي في رخاء اقتصادي، وحالة من الرقي والحضارة والتقدم قبل وصول البرتغاليين إليهم، وكان العرب هم أصل هذه الحضارة وسبب نشأتها.

٢- أظهر الشعر السواحيلي مدى شدة تدمير البرتغاليين للحضارة التي كانت موجودة على الساحل الإفريقي الشرقي.

٣- كشف الشعر السواحيلي عمَّا أسرته صدور أهل الساحل من كراهية تجاه البرتغاليين من ناحية، وكذلك أوضح حبهم وتقديرهم واحترامهم للعرب العمانيين من ناحية أخرى.

٤- سجَّل الشعر السواحيلي الدور الذي قام به العمانيون في تحرير الساحل الإفريقي الشرقي من الوجود البرتغالي تسجيلاً موثقاً.

٥- قد يُؤرخ لبداية عصر الاضمحلال في الأدب السواحيلي منذ دخول البرتغاليين إلى الساحل الإفريقي الشرقي، نظراً لقلة الأبيات الشعرية الموجودة آنذاك، بينما يُؤرخ لبداية عصر النهضة الأدبية منذ عهد الحكم العماني لشرق إفريقيا.

٦- قد يرجع سبب انتشار نمط الأغنية في هذه الفترة التي تعرَّضت لها هذه الدراسة إلى سهولة نظمه ومناسبته موضوعها لموضوع الأبيات الواردة في مادة البحث.

المراجع

المراجع العربية:

أبوعجل، محمد إبراهيم. ***الأدب السواحلي الإسلامي.*** المملكة العربية السعودية: عمادة البحث العلمي، وزارة التعليم العالي، جامعة الإمام محمد بن سعود، (١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م).

أبوعجل، محمد إبراهيم. ***البرتغاليون وشرق أفريقيا (تاريخاً ولغة وأدباً).*** مجلة كلية اللغات والترجمة، العدد السابع والعشرون (١٤١٧هـ / ١٩٩٦م)، ١٤٤ –١٩٥ .

الريامي، ناصر بن عبد الله. ***زنجبار شخصيات وأحداث (١٨٢٨– ١٩٧٢م).*** ط ٢، القاهرة: مكتبة بيروت، ٢٠٠٩م.

المغيري، سعيد بن علي. ***جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار.*** ط٢، سلطنة عمان، وزارة التراث القومي والثقافة، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.

المليباري، أحمد زين الدين المعبري. ***تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين.*** ط١، بيروت: مؤسسة الوفاء، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.

ستودارد، لوثروب. ***حاضر العالم الإسلامي.*** تحقيق الأمير شكيب أرسلان. نقله إلى العربية عجاج نويهض. ج٣، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٣م، ج٤.

قاسم، جمال زكريا. ***الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية.*** القاهرة: دار الفكر العربي، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م.

قاسم، جمال زكريا. ***دولة البوسعيد في عمان وشرق إفريقيا منذ تأسيسها وحتى نهاية حكمها في زنجبار وبداية عهدها الجديد في عمان (١٩٧٠–١٧٤١م).*** الإمارات: مركز زايد للتراث والتاريخ، ١٤٢٠– ٢٠٠٠م.

ماتفييف، ف.ف. *تطور الحضارة السواحيلية*، **تاريخ إفريقيا العام، المجلد الرابع، بيروت، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو)، ١٩٨٨م، ٤٥٣–٤٧٧.**

هربك، إيفان. *إفريقيا في إطار تاريخ العالم*، **تاريخ إفريقيا العام، المجلد الثالث، بيروت، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو)، ١٩٩٧م، ٢١-٥٢.**

المراجع الأجنبية:

Abou Egl, Mohammad Ibrahim Mohammad. ***The Life and Works of Muhamadi Kijuma***. London: Unpublished Ph.D. Thesis, University of London, 1983.

Bakhressa, Salim K. ***Kamusi ya Maana na Matumizi***. Nairobi: Oxford University Press, 1993.

Chiraghdin, Shihabuddin & Mnyapala, Mathias . ***Historia ya Kiswahili***. Nairobi: Oxford University Press, 1978.

Hichens, William: ***The Swahili Prosody***. Swahili, Vol. 33/1, (1962-3), pp. 107-137.

Hija, Saleh Hija. "***Sherehe ya Sultani Siku aliyotawala***". Maarifa, Vol. VIII, No. 50, 15 Disemba, 1959, p.382.

Johnson, Frederick. ***Standard English-Swahili Dictionary***, Nairobi: Oxford University Press, 1939.

Karisa, Beja S. "***Mchango wa Mohammed Kijumwa Katika Fasihi ya Kiswahili.***" MULIKA 27: (2006): pp. 15-35.

Knappert, Jan. ***Four Centuries of Swahili Verse***. London: Heinemann Educational Books, 1979.

Momanyi, Clara. ***Matumizi ya Taswira kama Kielelezo cha Uhalisi katika Utenzi wa Al-Inkishafi***. Kenya: Master of Arts katika Chuo Kikuu cha Kenyatta, 1991.

Njoroge, Janet na wengine. ***Kamusi ya Karne ya 21***, Chapa ya Kwanza, Nairobi: Longhorn Publishers, 2011.

Reed, Colin. ***Historia ya Ukristo Afrika: mbegu iliyopandwa katika udongo mzuri***. Dodoma: Central Tanganyika Press, 2007.

Stigand, Captain C. H. ***A Grammar of Dialectic Changes in the Kiswahili Language***. Cambridge: The University Press, 1915.

Taylor, William Ernest. ***African Aphorisms: Saws from Swahili Land***. London: Society for Promoting Christian Knowledge, 1891.